الزَّاهدان[1]

ـ ٢ ـ

قال أحمد بن مسكينٍ : وانتشر حديث السَّمكة في أهل (بلخ) واستفاض بينهم ، وكنتُ قصَصْتُه عليهم يوم السَّبت ، فلمَّا دار السَّبتُ من أسبوعه ؛ لقيني شيخُهم حاتم بن يوسف (لقمان الأمَّة) ومعه صاحبُه أبو ترابٍ ، فقال : يا أحمد ! لكأنَّك في هذه المدينة قمرٌ طالعٌ بليلٍ ، فلا يَعِظِ النَّاسَ في يوم السَّبت غيرُك ؛ ومن سمع فكأنَّه عاين ، وليس على ألسنة أهل بلخ منذ تحدَّثت إلا بِشْرٌ ، وابن حنبلٍ ، ولا على بال أحدٍ منهم إلَّا موعظتُك ، وحديثُك !

والكلام عن الصَّالحين في مثل ما وصفْتَ ، وحكيْتَ قربٌ من حقائقهم ، وسموٌّ إلى معانيهم ، وليس في القول بابٌ له موقعٌ كموقع القصَّة عن هؤلاء الَّذين يخلقُهم اللهُ في البشريَّة خلق النُّور ، يضيء ما حوله من حيث يُرى ، ويعمل فيما حوله من حيث لا يُرى ، وفي ظاهره الجمال والمنفعة ، وفي باطنه القوَّة والحياة ، ولست أقول لك : اذهب فحدِّث النَّاس ، ولكنِّي أقول : اذهب فأعطِ النَّاس عقلاً من الحديث .

قال ابن مسكينٍ : فلمَّا صلَّينا العصر ؛ قدَّمني أبو ترابٍ ، فجلست في مجلسي ذلك ، وهتف بي النَّاس يريدون الحديث عن (بشْرٍ الحافي) وما سقط لي من أخباره على الطَّريقة ؛ الَّتي حدَّثتُهم بها من قبلُ ، فابتدأت بذكر موته (رحمه الله) وأنَّ يومه كأنَّما اجتمع له أهل خمسٍ وسبعين سنةً[2] ؛ إذ خرجت جنازتُه بعد صلاة الصُّبح ، فلما يحصُل في قبره إلا في اللَّيل ، ممَّا احتشد في طريقه من الخلق ؛ حتَّى كأنَّ في نعشه سرّاً من أسرار الجنَّة يطالعهم به الموت ، فخرجوا ينظرون إليه ، وكانوا يصيحون في جنازته : هذا والله ! شرفُ الدُّنيا ، وشرفُ الآخرة .

---

(١) هذا هو الفصل الثاني من قصة السَّمكة . (س) .

(٢) مات ـ رحمه الله ـ عن خمسٍ وسبعين سنة . (ع) .

ثُمَّ قلت : حدَّثني حسينٌ المَغَازليُّ[١] : أنَّ بِشْراً (رحمه الله) كان لا يأكلُ إلا الخبزَ تورُّعاً عن الشُّبهات ، واكتفاءً لضرورة الحياة بالأقلِّ الأيسر ، وكان يقول في ذلك : يَدٌ أقصرُ من يدٍ ، ولقمةٌ أصغر من لقمةٍ . وسئل مرَّة : بأيِّ شيءٍ تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافيةَ ، فأجعلُها إداماً . وقد أعانه على ذلك : أنَّه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً في نفسه حتَّى فضَّل الإمامَ أحمد بن حنبل بأشياء : منها : أنَّ له أهلاً ؛ غيرَ أنَّه قيل له ذاتَ يوم : لو تزوجتَ تَمَّ نُسُكُك . فقال : أخافُ أن تقومَ الزَّوجةُ بحقِّي ، ولا أقوم بحقِّها . فكانت هذه النِّيَّة في نفسه أفضلَ من زواجه .

وكان مع هذا لا يؤاكِل أحداً ، ولا يسعَى إلى لقاء أحدٍ ، حتَّى إنَّه لما رغب في مؤاخاةِ الزَّاهدِ العظيم (معروفِ الكَرْخي) ؛ أرسل إليه (الأسودَ بن سالم) وكان صديقاً لهما ، فقال لمعروفٍ : إنَّ بشر بن الحارث يريد مؤاخاتَك ، وهو يستحِي أن يُشافِهَك بذلك ، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقدَ له فيما بينه وبينك أُخُوَّة يحتَسِبُها ، ويعتدُّ بها ؛ إلا أنَّه يشترط فيها شروطاً : أوَّلُها : أنَّه لا يحبُّ أن يشتهر ذلك ، وثانيها : ألا يكون بينك وبينه مُزَاوَرَة ، ولا مُلاقاة . فقال معروف : أمَّا أنا فإذا أحببتُ أحداً لم أحبَّ أن أفارقه ليلاً ، ولا نهاراً ، وأزوره في كلِّ وقت ، وأوثِرُهُ على نفسي في كلِّ حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوةً بيني ، وبينه ، ولكنِّي أزوره متى أحببت ، وآمره بلقائي في مواضع نلتقي فيها ؛ إذا هو كره زيارتي .

قال حسين المغازلي : وكان هذا كلُّه من أمر بِشْر معروفاً في بغداد ، لا يجهله أحدٌ من أهلها ؛ إذ لم يكن لبغداد إمامٌ غيرَه وغيرَ ابن حنبل ؛ فما كان أكثرَ عجَبي حين كنتُ عنده يوماً ، وقد زاره (فَتْح المَوْصليُّ) ، فقام ، فجاء بدراهم ملء كفِّه ودفعها إليَّ ، وقال : اشتر لنا أطيبَ ما تجد من الطَّعام ، وأطيبَ ما تجد من الحلوى ، وأطيبَ ما تجد من الطِّيب . وما قال لي مثلَ ذلك قطُّ ، وهو الذي رأى الفاكهة يوماً ، فقال : تركُ هذه عبادة ! وهو القائل لأبي نصر الصَّياد : لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السَّمكة[٢] .

---

(١) نسبة إلى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان بشر يعمل المغازل ، ويعيش من ثمنها . ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بني ! اعملْ بيدك ؛ فإنَّ أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا ، رحمه الله . (ع) .

(٢) مرَّ هذا في مقال (السمكة) . (ع) .

فذهبتُ ، فاشتريتُ ، وانتقيتُ ، وتَخيَّرت ، ثُمَّ وضعتُ الطَّعامَ بين أيديهما ، فرأيته يأكلُ معه ، وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيته منبسِطاً إليه ، وما لي عهدٌ كان بانبساطِه إلى أحدٍ . وقد كنتُ أخبرتُه في ذلك النَّهار بخبر أحمد بن حنبل ، عَلِمتُه من إدريس الحدَّاد : فإنَّه لما زالت المحنةُ بعد أن ضرِب بين يدي المعتصم وصُرِفَ إلى بيته ، حُمل إليه مالٌ كثير من سَرَوات بغداد ، وأهل الخير فيها ، فردَّ جميعَ ذلك ، ولم يقبل منه قليلاً ، ولا كثيراً ، وهو محتاجٌ إلى أيسرِه ، وإلى الأقلِّ من أيسره ، وإلى الشَّيء من أقلِّه ، فجعل عمُّه إسحاق يَحْسُبُ ما ورد ذلك اليوم ، فكان خمسين ألفَ دينار ، فقال له الإمام : يا عم ! أراك مشغولاً بحساب ما لا يفيدك . قال : قد رددتَ اليوم كذا ، وكذا ألفاً ، وأنت محتاج إلى حبَّةٍ من دانقٍ . فقال الإمام : يا عم ! لو طلبناه لم يأتنا ، وإنَّما أتانا لمَّا تركناه .

* * *

قال المغَازليُّ : فنمتُ تلك الليلةَ ، وأنا أفكِّر في صنيع الشَّيخ ، وقد تعلَّق خاطري به : كيف انقلبت الحالُ معه ، وأيُّ شيءٍ هذه الحال ؟ وجعلتُ أكِدُّ ذهني لأعرفَ الحقيقةَ العقلية التي سَلَّطَتْ عليه هذه الضَّرورةَ ، فتسلَّط النَّعيمُ على نفسه ، وأنا أعلم : أنَّ للقوم علوماً روحانيةً ليست في الكتب ، فمنها ما لا يتعلَّمونه إلا من الفقر ، ومنها ما لا يتعلَّمونه إلا من البلاء ، ومنها ، ومنها ؛ ولكن ليس منها ما يتعلَّمونه من اللَّذات ، والشَّهوات ؛ وذهب قلبي إلى أوهامٍ كثيرةٍ ، ليس في جميعها طائلٌ ، ولا بها معرفة ، حتَّى غلبتني عيناي ، وأنا من وَهَج الفكر نائمٌ كالمريض ، وقد ثَقُل رأسي ، واختلط فيه ما يُعقَل بما لا يُعقَل .

فرأيتُ أوَّل ما رأيت مَلِكاً جبَّاراً يحكم مدينةً عظيمةً ، وقد أطلق المناديَ في جَمْعِ كلِّ أطفالِ مدينته ، فجيء بهم من كلِّ دارٍ ، ثُمَّ رأيته قد جلس على سريره وفي يده مقراضٌ عظيمٌ ، قد اتَّخذه على هيئة نَصْلَيْنِ عريضين لو وُضِعَتْ بينهما رقبةٌ ؛ لفَصَلاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطِّفل من أولئك ، فيضع أصابعَ إحدى قدميه في شِقَّي المقراض فيقرضُها ، فإذا هي تتناثر أسرعَ ممَّا يَقرِضُ المِقصُّ الخيط ، ثمَّ يَرمي بالطِّفل مغشيّاً عليه ، ويتناول غيرَه ، فيبتُر أصابعَه . والأطفال يصرخون ؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ، ولا أملك إلا غيظي على هذا الجبَّار من حيث لا أستطيع أن أُمْضِيَ فيه هذا الغَيظ ، فأقرضَ عنقَه بمقراضه .

ثُمَّ رأيته يأخذ طفلاً صغيراً ، فلمَّا جاءت قدمُ الطفل بين شِقَّي المقراض صاح : يا ربِّ ! يا ربِّ ! فإذا المقراضُ يلتوي ، فلا يصنعُ شيئاً ، وكأَنَّ فيه حجراً صَلْداً ، لا قَدماً رَخْصَةً . فتميزَّ الجبارُ من الغيظ ، وقال : مَن هذا الطفل ؟ فسمعتُ هاتفاً يهتف : هذا بشر الحافي ! لا يبلغ تاجُ مَلكٍ في الأرض أن يكونَ لقدمه الحافيةِ نعلاً عند الله !

وكان إلى يميني رجلٌ يَتَوَضَّأ وجهُه صلاحاً ، وتقوى ، فقلت له : مَن هذا الطَّاغية ؟ وَلِمَ اتَّخَذَ المقراضَ لأقدام الأطفال خاصَّةً ؟

فقال : يا حسين ! إنَّ هذا الجبَّار هو ذُلُّ العيش ، وهذا وَسْمُه لأهلِ الحياة على الأرض ، يحقِّق به في الإنسان معنى البهيمة أوَّلَ ما يَدِبُّ على الأرض ، حتَّى كأنه ذو حافرٍ لا ذو قدَم .

قلت : فما بالُ هذا الطِّفل لم يعمل فيه المقراض ؟

قال : إنَّ لله عباداً استخصَّهم لنفسه ، أوَّلُ علامته فيهم أنَّ الذُّلَّ تحت أقدامهم ، وهم يجيئون في هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانيَّة على حكم طبيعة الشَّهوات ؛ التي هي نفسُها طبيعةُ الذُّلِّ ؛ فإذا اطَّرح أحدُهم الشَّهواتِ ، وزهد فيها ، واستقام على ذلك في عَقْد نِيَّةٍ ، وقوَّةِ إرادةٍ ؛ فليس ذلك بالزَّاهد كما يصفُهُ النَّاس ، ولكنَّه رجلٌ قويٌّ اختارته القدرةُ ليحمل أسلحةَ النَّفس في معاركها الطَّاحنة ، كما يحملُ البطلُ الأروعُ أسلحةَ الجسم في معاركه الدَّامية : هذا يُتَعلَّم منه فنٌّ ، وذاك يُتَعلَّم منه فنٌّ آخر ، وكلاهما يُرمَى به على الموت لإيجاد النَّوع المستعزِّ من الحياة ، فأوَّلُ فضائله الشُّعورُ بالقوَّة ، وآخر فضائله إيجادُ القوَّة .

* * *

قال المغازليُّ : وضرَب النَّومُ على رأسي ضربةً أخرى ؛ فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخِنَةٍ ، قد ارتفع لها دخانٌ كَثيفٌ أسود يتضرَّبُ بعضُه في بعضٍ ، وجعلتُ أرى شُعَلاً حمراً تذهبُ، وتجيء كأنَّها أجسامٌ حيَّةٌ ، فوقع في وهمي : أن هؤلاء هم الشَّياطينُ : إبليس ، وجُنودُه ، وسمعتُ صارخاً يقول : يا بُشرَى ! فلتبكِ السَّماءُ على الأرض ، لقد أكل بِشْرٌ الحافي من أطيب الطَّعام ، وأطيب الحلوى بعد أن

استوى عنده حَجَرُها ، ومَدَرُها ، وذهبُها ، وفضَّتُها ! فعارضه صائحٌ ، أسمعُ صوتَه ، ولا أرى شخصَه : ويلك يا زَلَنْبور[١] ! إنَّ هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكِه وعبادته ؛ هذا ويحك هو الزُّهدُ الأعلى الذي كان لا يطيقه بِشرٌ ، إنَّه إعناتٌ[٢] سلَّطه على نفسه ، فإنِّي دفعتُ هذا (المغازليَّ) الأعمى القلب لِيُزيِّنَ له ما فعل أحمدُ بن حنبل من ردِّه خمسين ألف دينارٍ على حاجته ، زهداً ، وورعاً ، وقوَّةَ عزمٍ ، ونفاذَ إرادةٍ ، وقلتُ : عسى أن تتحرَّك في نفسه شهوةُ الزُّهد ، فَيَحْسُدَ ، أو يَغَار ، أو تُعْجِبه نفسه ، فيكونُ لي من ذلك لَمَّةٌ بقلبه ، فأوسوِسُ له ، فإنَّا نأتي هؤلاء من أبوابِ الثَّواب ، كما نأتي غيرَهم من أبواب المعاصي ، ونتورَّعُ مع أهل الورَع ، كما نَتَسخَّفُ مع أهل السُّخف ؛ ولكنَّ الرَّجلَ رجلٌ ، وفيه حقيقةُ الزَّاهد ، فقد أعطى القوَّةَ على جعل شهوات نفسِه أشخاصاً حيَّةً ، يعاديها ، ويقاتِلُها ، فإذا أنا جعلتُ شهوتَه في اللَّذة ؛ قتلَ اللَّذة ، وإذا جعلتها في الكآبة ؛ قتل الكآبة ، وليس الزَّاهدُ العابدُ هو الذي يتقشَّف ، ويتعفَّف ، ويتخفَّف ، ويتلفَّف ، فإنَّ كثيراً ما تكونُ هذه هي أوصافَ الذلِّ ، والحمق ، ويكونُ لها عملُ العبادة ، وفيها إثمُ المعصية . ولكنَّ الزَّاهدَ حقَّ الزَّاهِد من أدار في هذه الأشياء عيناً قد تعلَّمت النَّظرَ بحقِّه ، والإغضاء بحقِّه ؛ فهذا لا يخطئ معنى الشَّرِّ إن لَبَّسناه عليه في صورة الخير ، ولا معنى الخير إن زوَّرناه في صورة الشَّرِّ ، وبذلك يضع نفسَه في حيث شاء من المنزلة ، لا في حيث شاءت الدُّنيا أن تضعَه من منازلها الدَّنيئة .

وما أكلَ بِشْرٌ هذه الطيِّبات إلا ليُبادِرَ بها وسوستي ، ويردَّني عن نفسه ، وعن اللَّمَّة بقلبه ، فلو أنَّه أعجبه زهدُ ابنِ حنبل ، ونظر من ذلك إلى زهدِ نفسه ليَحبطَ أجرُه ؛ فبهذه الطيِّبات عالجَ نفسَه علاجَ مريضٍ ، وقد غيَّر على جوفه طعاماً بطعامٍ ، كما يبدِّل على جلده ثوباً بثوبٍ ؛ ولا شهوةَ للجلد في أحدهما .

* * *

قال المغازليُّ : وثقُلَ النَّوم عليَّ ثَقلةً أخرى ، فرأيتُني في وادٍ عظيمٍ ، وفي

(١) هذا اسمُ بعض ولد إبليس فيما يروى . وفي بعض النُّسخ التي بأيدينا : أنه خنزب ، لا زلنبور . (ع) .

(٢) « إعنات » : تشديد ، ومشقة .

وسطه مثلُ الطَّوْد من الحجارة قد رُكِمَ بعضُها على بعضٍ ، ورأيتُني مع بِشْرٍ أقصُّ عليه خبرَ أحمد بن حنبل ؛ فقال : انظر ، ويحك ! إنَّ النَّاسَ يسمُّونها خمسين ألف دينارٍ ، وهي هنا في وادي الحقائق خمسون ألفَ حجرٍ لو أصابتْ أحمد ؛ لقتلَتْه ، ولكانت قبرَه آخرَ الدَّهر .

إنَّ المالَ يا بنيَّ ! هو ما يعملُه المال لا جوهرُه من الذَّهب ، والفضَّة ، فإذا كنتَ بِمَفَازةٍ ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك ، فالتُّرابُ ، والذَّهبُ هناك سواء ؛ والفضائل هي ذهبُ الآخرة ؛ فهنا تجدِّد بِالمال دنياك ؛ التي لا تبقى أكثرَ من بقائك ، وهناك تجدِّد بالفضائل نفسَك التي تخلدُ بخلودها .

ومعنى الغنى معنىً مُلْتَبِسٌ على العقول الآدميَّة لاجتماع الشَّهواتِ فيه ، فحين يردُّ أحمدُ بنُ حنبل خمسين ألفاً ، يكون هذا المعنى قد صحَّح نفسَه في هذا العملِ وَجْهاً من التَّصحيح .

* * *

قال حسين المغازليُّ : وغطَّني النَّوم في أعماقه غطَّةً أخرى ؛ فإذا أنا في المسجد في درس الإمام أحمد ، وهو يحدِّث بحديث النَّبيِّ ﷺ : « إذا عظَّمتْ أمتي الدِّينارَ ، والدِّرهم ؛ نُزِعَ منها هيْبةُ الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف ، والنَّهيَ عن المنكر ؛ حُرموا بركة الوحي »[١] وهمَّ أن يتكلَّم في تفسيره[٢] ولكنَّهُ رآني ، فأمسكَ عنه ، وأقبل عليَّ ، فقال : يا حسين ! إذا اجتزأ شيخُك بالرَّغيف فهذا عنده هو قدْرُ الضَّرورة ؛ فإن أكلَ الطَّيبات ، فقد عرضتْ حالٌ جعلت هذه الطَّيباتِ عنده هي قدْرَ الضَّرورة ؛ وفي هذه النُّفوس السَّماوية لا يكون الجزءُ الأرضيُّ إلا محدوداً ، فلا يكون محصولُه إلا ما ترى من قَدْرِ الضَّرورة .

ولما صغُرَ الجزء الأرضيُّ في نفوس المسلمين الأوَّلين ؛ ملَكوا الأرض كلَّها بقوَّة الجزء السَّماويِّ فيها ؛ إذ كانت إرادتُهم فوق الأطماع ، والشَّهوات ، وكانت بذلك لا تذلُّ ، ولا تضعف ، ولا تنكسر ؛ فالآدميَّةُ كلُّها تنتهي إلى بعضِ صُوَرٍ ، وهؤلاءِ هم الذين محلُّهم في أعلاها .

---

(١) انظره في كنز العمال (٦٠٧٠) وضعيف الجامع (٥٩٧) والسلسلة الضعيفة (٢٥٧٨) .
(٢) سيأتي تفسيره في مجلس آخر من مجالس ابن مسكين . (ع) .

يا حسين ! ألا وإنَّ ردَّ خمسين ألفَ دينارٍ هو كذلك قَدْرُ الضَّرورة .

قال حسين : وذهبتُ أعترض على الإمام بما كان في نفسي من أنَّ هذا المَالَ ، وإن لم يكن من كسْبه ؛ فقد كان يتحوَّل في يده عملاً من أعمال الخير ؛ وأُنْسِيتُ : أنَّ هذه الصَّدقات هي أوساخُ النَّاس ، وأقذارُ نفوسهم ؛ فلم أكد أفتح فمي حتَّى رأيتُ الكلام يتحوَّلُ طيناً في فمي ليذكِّرني بهذا المعنى ؛ وكدتُ أختنق ، فانتفضتُ أتنفَّس ، فطار النَّومُ ، والحُلْمُ .

* * *